الجنس والحضارة

بقلم عبد العزيز هادو

لقد كان قليلا ذلك الذي فهمناه عن اللاشعور وصلته بالاحلام ، وعن الجنس وظواهره العقلية العجيبة قبل ان يبدأ سيجموند فرويد عمله العظيم . فلقد اوضحت دراسة التطور العلاقات التي بين كل المخلوقات الحية ، وتماثل البناء التشريحي بين كثير من الاجناس . ولا يزال علم السيكولوجيا يعوزه بعض استكشافات لتوطد اركانه نهائيا على اساس ثابت من قانون ، وليتتبع النمو التدريجي للعقل من بسيط الى مركب .

ومما يجدر بالذكر ان الدكتور بربور الذي عمل معه فرويد اول الامر في « العلاجات الناطقة » talking treatment لاحظ بعض اعراض شاذة في حالة امرأة شابة ، عزاها الى الهستيريا . وعجز عن ازالة هذه الاعراض باستخدام التنويم المغنطيسي ، الذي كان يزاول فيما مضى بتوسع اكثر من الان ، وكان شائعا اذ ذاك في صناعة الطب ، واخذت حالتها تزداد سوءا . ولاحظ بريور ان مريضته في حالات « ذهولها » تغمغم مع نفسها . فجعلها تكرر الكلمات التي تفوهت بها ، وبهذه الطريقة علل الباعث على الفكر التي تسلطت على عقلها حتى توالدت . وكان الاثر لمنشأ هذه الاوهام والتخيلات التي تسلطت على الفتاة هو في الواقع وجود « الدوافع المخبوءة » Hidden motives المشتركة في مظاهر اللاشعور التي تفوق الحصر في علاقاتها بالحياة اليومية وبالحالات العقلية المرضية .

وعاد فرويد ، الذي كان يدرس في نفس الوقت على العالم الشهير شاركوت Charcot الى فينا ليلتقي بالدكتور بريور ، الذي كان يستعمل حينذاك « طريقة التفريغ » Cathartic method وظهر لفرويد ان بريور لم يفهم تماما علاقة هذه الطريقة بالسيكولوجيا العلاجية ، فاقنعه باتمام ابحاثهما في الاجراءات التي ابتكرها حديثا . ومع ذلك فقد اضاع بريور بعض حماسته بخصوصها .

ولم تتزعزع ثقة فرويد في كشفه ولم تفتر همته . فواصلا استقصاءاتهما مدة من الزمن تراءى لهما في نهايتها اقامة الدليل على قيمة كشفهما ، وانتهيا الى النتيجة بأن العاطفة المحبوسة في مريض ، اذا ما عوقت في طريقها الى الافلات الصريح ، فانها تتحول الى اعراض شاذة ، اما فيزيقية واما عقلية . وبملاحظة مرضاهما في عيادتهما ، وجدا ان الاعراض كثيرا ما يكون لها صلة ببعض حادثات في حياتهم . وقادهما هذا الى الاعتقاد بأن الاختبارات المرضية كانت تتعلق بأخرى قبلها ، وتلك التي كانت قبلها ليست في حاجة الى البانولوجيه في طبيعتها ، وان التجارب التي سبقتها زودت المصادفة الباتولوجية الاخيرة بخلق عقلي .

وبعد ان تعاون فرويد وبريور معا مدة من الزمن في هذه الملاحظات والتجارب انفصلا احدهما عن الاخر ، فقد دب الخلاف بينهما اذ لعب الجنس دوره في تكوين العصاب neurosis وهكذا مضى فرويد قدما بمفرده ثم نشر تطبيقا عمليا من نتاج مجهوده، بسماحه لمريضه ان يتكلم بكل ما يدور بخلده ، وبعد ملاحظة بالغة منتهاها في الدقة ، اقتنع بأن اي شيء يحدث للمريض له صلة مباشرة او غير مباشرة « بجرح » ما في لاشعوره .

وفي عام ١٨٩٥ القى فرويد اولى محاضراته عن اكتشافاته ، التي قدر لها ان تكون بشيرا بميلاد التحليل النفساني Psycho - analysis ولقد تبعه بادىء الرأي ثلاثة نفر من الوسط الطبي هم : ادلر Adler وستيكل Stekel وسادجر Sadger . ولكن في سنة ١٩٠٠ بدأ يانغ Jung وشلة صغيرة من اتباعه الفيزيقيين ، يستعملون الطريقة الفرويدية بعيادة طب الامراض العقلية في زيوريخ. وبعد ثمانية اعوام وبناء على دعوة يانغ قام اول مؤتمر لمدرسة الفيزيقيين هذه في سالزبورج .

عند ذلك اخذ الطلبة الجادون ذوو الضمير الحي يدخلون الميدان افواجا . وظهرت المؤلفات الفكرية والانتقادية تحمل طابعي مقدرة المدرسة وحمية الرائد . ومن ميدان علم النفس العلاجي انتشر علم التحليل النفساني ، وامتد الى ميادين الفولكلور وعلم الاساطير و « الحواديت » . وبدأت تظهر الشروح التي تعوزها التفسيرات السيكولوجية وبدأت تطغى على أساطير الجنس البشري وخرافاته . واتضح أن رغبات السلالة البشرية التي كانت تتوق الى الرضى خلال العصور جاء وصفها في الخرافات والاساطير ، وانه اذا فهم الشخص المفتاح السري الذي يمده به التحليل النفساني لامكنه ان يفسر معنى كل تلك القصص القديمة . فقد قال علماء التحليل النفساني ان عواطف البشر لونها فنان اعمى على لوحة من الفكر .

ومن المعروف قطعاً لدى علماء الأنتروبولوجيا أن الرمز لعب دورا هاما في الانتاج البدائي لعقل الانسان . بل ان طريقتنا اليوم في التعبير عن الفكر قائمة على اساس صورة من الرمزية ، فالمهندس الذي يتصور تجويف مدخنة ، والموسيقي الذي يوقف السيمفونيات السماوية ، والفنان الاديب ، كل اولئك يستعملون الرموز كثيرا . وقد اشار اندريه تريدون André Tridon في احد مؤلفاته الى ان : « لغة جميع الشعوب رمزية ، ودائما ما يفرض الانسان في كلامه مقارنة بين مظاهرة ثابتة في الطبيعة واجزاء من جسم الانسان . فنحن نتكلم عن فم النهر او الكهف ، وعن مهاد الارض او جوفها او بطنها ، وعن قمة الجبل او سفحه ونقول ان في البطاطس عيونا ، وان اللون دافيء ، وحقائق جافة ، واننا نشم رائحة التعب ، وغير ذلك . »

كيف دخلت هذه التعبيرات في كلامنا ؟

وكيف سبر علماء التحليل النفساني صلتها بأسس تفكيرنا ؟ لن نحتاج الى كبير عناء لنعرف ان هناك معنى عميقا وراء كل هذا اللف في كلامنا . ان علاقة ما ، ليست معروفة الى الان ، كانت متوثقة بين عناصر ثابتة موجودة في اللغة وفي الفكرة البدائية عند بني الانسان .

والانسان يملك في داخل نفسه اتجاهين ، يوصف احدهما بالمتقارب او المائل نحو المركز Centripetal والاخر بعيدا او منحرف عن المركز Centrifugal

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
العودة من النبع الحالم	سلمى الجيوسي
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

الأول يميل الى نقله الى الامام ، والاخر يظهر رغبة صريحه للرجوع الى حالة بدائية . ونرى هذا الاتجاه ، مثلا ، في البناء التشريحي للانسان حيث تثابر احيانا بعض اعضاء جرثومية ثابتة على النمو ، يشيع التعب العظيم في الانسان. ولقد سرد ميشنكوف Metchnikoff في مؤلفه لفيم في « طبيعة الانسان » (١) امثلة كثيرة عن النشاز الموجود في تشريح الانسان ، وهل يمكننا ان نشير الى « النشاز » في بنائه العقلي ايضا ؟ ان نيتشه Nietzsche ، الذي سبق علماء التحليل النفساني تنبأ بكثير من كشوفهم ، فذكر في احد مؤلفاته : « في نومنا وفي احلامنا نمر بجميع فجر البشرية القديمة . واعني بهذا ان الانسان يدرك في احلامه ما ادركه في اثناء حالات اليقظة منذ الاف السنين ... فالحلم يرجع بنا الى حالات قديمة من التهذيب الانساني ، ويقدم لنا الوسيلة لنفهمها بطريقة اجدى واحسن » .

ابدى هذه الملاحظة اخيرا علماء النفس المشتغلون بالفروض الحديثة التي اظهرتها نظريات فرويد وحسنتها، كما انها ـ الملاحظة ـ قررت ما لهذا الفيلسوف الشهير من بعد نظر ونفاذ بصيرة .

ولا يخفى ان لكل شخص طاقة جنسية Libido يطالب بارضاء رغباتها . واذا لم يقدم لها هذا الارضاء بوسيلة سوية فان الميل الى الرغبة يكون في حل من التسرب من اضعف نقطة في خط التقييد . واذا لم يتم هذا ايضا ، فهناك تسليم من العقل لما يسميه علماء التحليل النفساني بالتعالي او التسامي . هذا لان الرغبة تتسرب من خلال قنوات لا يستعملها العقل لمنفعته حين تكون الرغبة قادرة على الارضاء بطريقة سوية . ومن قوانين الطبيعة ان القوة تميل الى قهر العوامل المكبوتة في بيئتها بغض النظر عما تكون عليه هذه العوامل . وليس من قوة في الطبيعة اعظم ولا اكثر اهمية ـ حسب الترتيب البيولوجي للاشياء ـ من الطاقة الجنسية .

يقول العالم النفساني المعروف كوريات Coriat : « ان الفكر اللاشعورية موجودة وفعالة في الفرد العادي كما هي في المريض بالاعصاب . والفكر اللاشعورية او الاراء غالبا ما تظل هكذا ، لان قوة يطلق عليها «المقاومة» تمنعها من ان تصير شعورية . وعمل الكبت كثيرا ما يلتقي بالفشل وعدم التوفيق ، لان الدافع المكبوت ـ الرغبات ـ والعقد النفسية تواصل البقاء في اللاشعور ، ومن ثم تبعث الى الشعور بديلا متنكرا في هيئة اعراض عصابية » (٢)

حينما ينقضي النهار وما فيه من مؤثرات، يدخل الفرد في دولة النوم ، فتتسلل الرغبات اللاشعورية لتمثل دورها في هيئة حلم . ولكن هنا ، كما في حالة اليقظة ، يكون الرقيب متنبها يقظا ، وبالتالي تسدل على المشهد

---

(١) The Nature of Man

(٢) Abnormal Psychology

ستار الرمزية لتخفي طبيعة الرغبات الواقعية التي تعلن عن نفسها .

وفي هذا الصدد كتب احد تلامذة فرويد التقرير الآتي : « ان الرقيب هو الذي يجبر الاحلام على اتخاذ لغة الرمزية الغامضة لكي يكفل امكان ترتيب رواية المادة الجنسية في الاحلام . فاذا اقنع الشخص نفسه بفائدة الرمزية العظيمة في ترتيب رواية المادة الجنسية في الاحلام ، لا بد ان يصطدم بالسؤال عما اذا كان كثير من هذه الرموز تبدو كأنها حروف اختزال بمعنى ثابت لكل الحالات . ويجب ان نلاحظ بهذه المناسبة ان هذه الرمزية لا تتعلق بالاحلام فحسب ، ولكنها تتعلق ايضا بفكر لا شعورية لاناس ، وانها لكائنة في (الحواديت) والاساطير وفي الامثال السائرة وفي الحكم المأثورة وفي النكات كوجودها في الاحلام . ومن بين هذه الرموز المستعملة اشياء كثيرة تعني بانتظام او شبه انتظام الشيء ذاته ، وفوق هذا ، وفي الغالب ، فان الفهم العام والنشاط الجم انما يعتمد على عقلية هذه المخلوقات » (١)

ولكل جيل دستوره الخاص بمعاملاته وعاداته وفكره وآدابه وقيمه ، الخ .. وهذه كلها تلقي قيودها على الفرد وعلى رغباته . واذن فكل جيل ، بنوع ما ، يمكن ان يقال ان له مرتبته اللاشعورية . والجماعة لا تنفك تغير البيئة على الدوام لان الفرد يضطرها ان تختار وترتب لنفسها المقاييس التي لا يمكن عملها دائما له ليعيش لها . والفرد اذ يحاط بسور من القمع الذي تسببه الجماعة ، لا يسمح له بالتحدث في هذا البحث الحيوي بالطريقة الصريحة التي يعالج بها اي موضوع اخر ذي اهمية لوجوده . ولا يخرج الامر كله عن كونه من المحظورات taboo ومن هنا ينشأ الاحساس بانه لا بد من وجود شيء قبيح يختص به . وهكذا ترقى المرتبة في اللاشعور — مرتبة الكبت . وقد تبدو كلها واضحة في الظاهر . والفرد يدور حول واجبه اليومي ولا يظهر اي اعراض لطبيعته الجنسية . ولكن ، في اعماق عقله توجد شخصية تختلف تمام الاختلاف عن التي تظهر سطحيا .

ولقد اوضحت تقصيات علماء الامراض العقلية كل هذا بمهارة فائقة . ولوحظ مرة تلو مرة ان السيدات الفضليات اللاتي يعانين هيئة معينة من الانحراف العقلي يتفوهن بسباب عنيف وفحش شديد . والنساء الخليعات ، من جهة اخرى ، اللاتي يعانين نفس هيئة المرض بالذات لا يمكنهن اظهار هذا العرض بالصيغة التي تظهرها اخواتهن الاحسن منهن . والصورة الواضحة للكبت ونتيجته تؤثر على بعض الانواع .

ودراسة المذهب الروحاني Animism تمدنا بالدليل الاول عن المادة . فالانسان القديم يعتقد ان له نفسا او روحا تحرك حياته على هذه البسيطة . وتنتقل هذه الروح بعد الممات الى دائرة او بيئة اخرى لتبقى موجودة ككيان مستقل . وما كان الجسد الا مجرد مسكن للنفس ، وكان ينظر اليه كمخلوق ممتاز . ولم يكن هناك بالتأكيد اي فهم لتأثير الجسم على العقل كما هو معروف في هذا الزمن .

ويأتي الانسان بالتدريج ليكبّر نفسه كي تحيط بأشياء لا حياة لها . ويعتقد بان لكل شيء روحا ، فالريح الصاخبة التي تثور في الغابات فتحطم كل ما يصادفها في طريقها لها روح ، والنسيم العليل الذي يسلم جسمه لنوم مريح فيه روح . ولكن الانسان في الوقت ذاته يعتقد ان هناك وراء الحياة جميعها تكمن قوة غامضة — التكوين ، الجنس — فمد رغباته الجنسية واحساساته الى اشيائه المؤلهة . والانفعالات البشرية في الطبيعة كيفما تكن ، كانت محجوبة فوق الالهة . وبعد مدة من الزمن اصبح الجنس هو الصيغة الاصلية لعبادة الانسان وعقيدته . وكان هذا في حال من الشعور الاجتماعي في كثير او قليل من الصفاء . واصبح الجنس قبيحا بظهور الحياة المعقدة ، او كما اصطلح على تسميتها « الحضارة » . والانسان المجرد بالنسبة الى الطبيعة يبدو اقل الاجناس بالنسبة لانحطاط الفكر ولكنه اسماها في الوظيفة .

والانسان اللاشعوري يظل مخلوقا طبيعيا . فهو يعبر عن رغباته سواء سمح له بذلك ام لم يسمح ، والطريقة التي يعبر بها عن ذلك تتوقف على مقدار التحديدات التي تفرضها عليه البيئة . وهو يرى جاذبية سرية لدافعه الجنسي في اشكال وفي ابنية اشياء كثيرة في بيئته كما تعود ان يرى حين كان همجيا . وانه ليختبر صنفا من الارضاء الجنسي بتفرسه فيه وترك افكاره تجول كما تريد . وبعض عوامل البيئة كالقصص الفكهة والصور الفنية التي من طراز معين ، خلقت بصراحة لهذا الاتجاه الذي يميل اليه الانسان ، وانها تقدم المنفذ لبعض النماذج المكبوتة .

فالاعلان ، مثلا ، له جاذبية على المشاهد اساسها

(١) Frend's Theories the Neurosis, P. 105 : Dr. Hitchman

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش
نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي

الروابط الجنسية . واعلانات الحائط الكبيرة والرسوم التي تعلن عن المنتجات التجارية ، بمظهرها ذي الرونق الزاهي لنساء نصف عاريات ، يرسم بجلاء ووضوح ان الانسان سينظر حتما الى شيء يفتنه جنسيا ، اسرع واطول مما ينظر الى اي شيء اخر ليست فيه هذه المزايا.

والانسان يرغب، بوعي او بغير وعي ، في اطالة لذته الجنسية ، والدافع الجنسي بفطرته سيتمسك باي شيء يساعده في هذه الناحية . فهو راقد في طبيعة الانسان ذاتها للسعي وراء اللذة والعمل على اجتناب الالم .

واطالة الحب عن طريق العنصر الروحي اشار اليها الفيلسوف كانت بقوله : « وعلى قدر سرعة الذهن في النشاط ، فهو لا يتوانى عن بذل تأثيره ايضا في المحيط الجنسي . وسرعان ما اكتشف الانسان ان منبه الجنس Stimulus ، الذي اعتمد في الحيوانات على مجرد دافع دوري غالبا ما يكون وقتيا ، كان في حالته الخاصة مقتدرا على الاطالة ، وفي الغالب على الزيادة والكثرة بواسطة قوة التخيل »(١).

ونجد ان الرغبة تتحقق في شكل رمزي لا في الاحلام فقط ، سواء احلام النوم او احلام اليقظة ، ولكن في الشعر والموسيقى والفن والادب ، الخ ..

والحياة في طريقها السريع لتكون اكثر تعقيدا . وسرعة الحياة الحديثة تجبر الانسان على تنظيم نشاطه اليومي بالنسبة للزمن الذي تسمح به بيئته . فمركبات الترام المزدحمة ، والمطاعم ، واللاهي ، والمتاجر ، والشوارع تشهد كلها على ازدياد السرعة التي جلبتها الحضارة الحديثة التي جعلت ملايين الانفس لا تسير قطعانا ضمن الحدود الضيقة بالمدينة . وهذه الحاجة التي تتطلبها السرعة المجنونة ترقّي في عقولنا هيولية غامضة . وبلاد اليونان لم تنجب مفكريها العظام الا لانها منحت سكانها وقتا للراحة (عطلة) ، هذا الوقت الذي يعد من المستلزمات التي لا تقدر قيمتها لكل نفس فنانة .

وفي اثناء كل هذه السرعة ، وكل هذا التزاحم كيفما يكن ، تعمل الجنسية صامتة على التأثير في الانسان والضغط عليه واقناعه ، وحثه طوال حياته . ولكن الانسان لا يعير كل هذا اي التفات . فهو جد مشغول بالعوامل الموضوعية في بيئته ، هذه العوامل التي هي ، بل كل هذا ، اكثر وضوحا واكثر اهمية في نظره .

وفي بعض الاحيان تكشف الجنسية عن نفسها مع نسمات الصيف الرقيقة ، وفي احيان اخرى ، مع عواصف الشتاء الهوجاء . ولكننا في كل الحالات نتعامل مع المادة نفسها ـ اللبيدو .

واعمال اللبيدو لا تخضع للتأثير مع مرور الزمن. هذا التأثير الذي اصبحنا نعرفه الان وندريه بواسطة استقصاءاتنا السيكولوجية .

الاسكندرية
عبد العزيز جادو

(١) The Probable Beginning of Human History, Publlshed in 1786

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢١٣٢

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينان
او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ١٠ يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشانها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب ٤١٢٣